تلقي أعمال ياسمينة خضرة الروائية

الأستاذ الدكتور: سليم بتقة

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر– بسكرة

مقدمة:

الحضور المكثف للكاتب ياسمينة خضرا في المشهد الصحفي والإعلامي الأجنبي، وغيابه عنه في المحلي يمثل هو ظاهرة، مقارنة مع حضور غيره، ممن استحوذ على مجمل المشهد لسنوات طوال، كان فيه الكاتب، على الأغلب، اسماً مستعاراً أو حتى صريحاً، يمرُ باستحياء وخجل. المشهد اليوم تغير فالكاتب بدأ يسجل تواجداً مهما وبارزا في العالم المحلي ولكن السؤال الذي يطرح: كيف جاء هذا الظهور الملفت على الكاتب نفسه وعلى المشهد؟ وكيف تلقى الجمهور هذا الظهور، وإلى أي مدى يؤثر ظهور الكاتب باسمه المستعار أو الصريح إعلاميا على ترويج منتجه ؟ وكيف تعامل الكاتب مع كل هذا؟

1– على مستوى الصحافة الوطنية:

ظل المشهد الإعلامي في سنوات الثمانينات والتسعينات حكرا على جيل من الكتاب الكبار نذكر منهم على سبيل المثال دون ادعاء المقارنة أمام العمالقة وشيوخ ياسمينة خضراء: الطاهر جاووت رشيد ميموني، آسيا جبار ورشيد بوجدرة. لا يمكن الحديث عنها طالما أن الأمر ظل موكلا للصحافة العادية التي تتولى أساسا عملية النقد في الجزائر بسبب غياب صحف أدبية متخصصة في النقد الأدبي.

أثارت نصوص ياسمينة خضرا عديد الاسئلة، فالصحفيون لاحظوا في البداية ولادة كاتب غذي بالأدب البوليسي فقد استقبل عمله (المجنون بالمبضع) *Dingue au bistouri* بكثير من الحماسة.

كتب عبد الرحمان الوناس في جريدة المجاهد قائلا:

"...عمله الاول مبهر وأخاذ) (المجنون بالمبضع) للمحافظ لوب، حيث اختلطت العاطفة والحساسية المؤنثة ، الحنان، الدعابة، الشعر، الفكاهة... وهذا ما ينبغي أن ندعوه بالفن الراقي، فيه من اللطافة والسخرية الحلوة المرة وهذا ما نفتقده عندنا".1

ومع ذلك، فإنه من الضروري الإشارة إلى أن المقالات المختلفة في الصحافة الجزائرية، وهي تحمل تقاريرا، رأى أصحابها أن رواياته عبارة عن شهادات على حقيقة مأساوية، نصوص تتغذي بالخصوص من الأحداث الدامية، حيث تهيمن مواضيع العنف والموت.

هذه هي الخلفية السياسية لـــ "الكتابات التي تبدو أنها تطرح مشكلة للصحافة الجزائرية. فالنصوص بترت جماليتها لكي تظهر فقط على أنها وقائع ليس لها قيمة جمالية كبيرة. "غالبية الكتب التي نشرت مؤخرا في فرنسا تتبع نفس الشبكة من الموضوعات".2 ولكن الكاتب عرف مسارا خاصا جعله فريدا من نوعه. ويبدو أن هناك نقطتين لا مناص منهما لهما علاقة بتلقي عمله: النشر والرقابة.

1-1 مشكلة النشر:

كما هو معروف فإن كل إبداع أدبي معد للاستهلاك العام، فقد كان قلق المؤلف الأول هو وجوب أن يقرأ (بضم الميم)، أي أن يكون معروفا، و من يقول معروفا يقول عاجلا أو آجلا يطلب من المكتبات. لذلك فحركية الإنتاج والنشر مرتبطة ارتباطا وثيقا مع بعضها البعض. الكاتب لا يحيى حقا إلا حينما يقرأ، وبالتالي فإن الأحكام الجمالية على وجه التحديد للقراء هي التي تعطيه هذا الوجود. فهو لا يحقق ذاته سوى بتواطؤ نشط لقرائه، وتلقي العمل يمثل تجربة جمالية، فضلا عن إنتاجها، وذلك عندما يدخل القارئ في اتصال مع عالم النص، إنه في بحث عن المعنى.

النشر في الجزائر مثل الثقافة السيئة للسياسات المتعاقبة للبلد، و التي دفعت به إلى هامش خطط التنمية، يعاني وطأة تداعيات الأزمة المالية التي تواجهها البلاد، مما قلل بالتالي من أهمية القراءة ونشر الكتب. خلال سنوات 90، عرف النشر صعوبات كبيرة، الأعباء الاقتصادية، إضافة غلى ندرة المواد الأولية، وارتفاع تكلفة الورق، وغلاء الكتاب....

وهو الأمر الذي أثر بشكل كبير على الإنتاج الروائي في الجزائر، و أدى إلى الانسداد، والإحباط أو قل حتى أزمة. فالناشرون وجدوا أنفسهم في وضع يحسدون عليه، فتهاونوا عن الترويج لكتبهم، وضل بعض الكتاب وخصوصا نصوصهم مجهولة لدى الجمهور لهذا السبب.

هذا هو الحال بالنسبة لنصوص ياسمينة خضرا، لأنه على غرار الكتاب الجزائريين من أبناء جيله، سيتحمل كل الضغوطات والقيود المفروضة من آلة التحرير.

في تنشيطه مؤتمرا صحفيا خلال عرض (سنونوات كابول) *Hirondelles de Les Kaboul* صرح الكاتب قائلا:

"عندما ينفد أحد كتبي بفرنسا وقد طبع منه 25000 في غضون شهر، يلزم انقضاء عام كامل في الجزائر حتى تباع منه 5000 نسخة فقط." 3

من جهتها ذكرت مجلة الثقافة التي تصدرها المكتبة الوطنية الجزائرية في ذلك الوقت بأن الرواية نفسها في الجزائر كانت تطبع مرتين بمعدل 10000 نسخة لكل طبعة، وهو أمر بعيد عن معادلة النصف مليون كتاب بيع في فرنسا.

هذه الحال دفعت بياسمينة خضرا وكتاب آخرين إلى نشر نصوصهم خارج الجزائر، معترفين بغياب الجمهور لأسباب لها علاقة بمسألة الإمكانات المادية. يقول الكاتب أيضا: "طبعت كتبي هناك في فرنسا بسبب الموارد والمكتبات، لم يجدوا ما يكفي من القراء، كتبت في بلدي ثمانية كتب لم يصادف أحدها جمهورا". 4

وكما كان متوقعا خصصت الصحافة الجزائرية لروايات ياسمينة خضرا استقبالا خجولا، وكمثال على ذلك حين طبعت روايته الأولى (موريتوري) *Morituri* لدى دار *Baleine* بفرنسا، ونجاحها الفوري هناك لم تصنع الحدث في الجزائر، حيث لم يصدر أي مقال عنها في الصحافة الجزائرية باللغتين .

يمكننا أن نلخص أسباب هذا الاستقبال المحتشم في الآتي:

من ناحية، وصول جمهور القراء الجزائريين إلى الروايات التي نشرت في فرنسا صعب بسبب عدم وجود قنوات التوزيع في سنوات 90، ضف إلى ذلك ارتفاع تكلفة الكتب في السنوات الأخيرة مقارنة بالقدرة الشرائية للجزائريين ، مما يجعل من الأعمال المنشورة في فرنسا، أعمالا موجهة في المقام الأول لجمهور القراء الفرنسيين.

ومن ناحية أخرى، غياب عامل آخر في عملية التلقي وهو الترجمة. في الواقع نلاحظ بالنسبة لحال هذا الكاتب غياب ترجمة رواياته أساسا باللغة العربية. فهذا العامل قلص من عدد القراء في الجزائر باعتبار أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الأولى في البلاد(. حتى 2006 لم تكن هناك سوى ترجمة واحدة بالعربية قام بها أمين الزاوي لصالح دار الغرب للرواية وهي المعنونة ب: (بم تحلم الذئاب) *A quoi rêvent les loups* . لم يبع منها سوى 400 نسخة. رقم أعلن عنه الكاتب نفسه وهو يعكس قلة الاهتمام الذي يبديه القراء في بلده. يضاف إلى هذه الترجمة هناك الشاعرة إنعام بيوض التي ترجمت (الكاتب)، والروائي محمد ساري الذي ترجم (أشباح الجحيم)عن رواية (صفارات بغداد) بالفرنسية(. وللتذكير فإن الكاتب لم يكن راضيا عن الترجمات العربية لرواياته، وقال في هذا الصدد: "بصراحة أفضل أن يكون المترجم لبنانيا أو سوريا على أن يكون جزائريا."

يضاف إلى هذا وسائل الإعلام التي تديرها دور النشر الفرنسية والتي سلطت الضوء خصوصا على الحدث: الإرهاب، التراجيديا، العنف. والحال هذه فإن قراءة موجهة كهذه تتعارض مع الكاتب الذي وصف بالكاتب الاستعجالي، وهي فكرة اعترض عليها قائلا: "لست كاتبا استعجاليا".5

منذ سنوات فقط ومع الصالون الدولي للكتاب *SILA* استطاع الجمهور الجزائري التواصل مباشرة مع ياسمينة خضراء بمناسبة تقديم أعماله: (حصة الموت) *La part du mort* 2004 ، (الصدمة) *L'attentat* 2005 ، (صفارات إنذار بغداد) *Les Sirènes de Bagdad* 2006

وهكذا فسح المجال أمام الكاتب للقاء جمهوره، و الكتاب الذي نشره والترويج للكتاب الذي راهن عليه الناشر، وفي نفس الوقت يمثل هذا أيضا فرصة لقرائه لمعرفة "كيف يعمل" ولفهم الذي يحركه، ذلك الجانب الإنساني الخفي وراء العمل، بما أن– كما يقول الخبراء– ليس هناك أقل طبيعية من الكتابة.

وأخيرا، إذا لم يحظ هذا المؤلف بالإجماع، وأن عمله لم يقرأ كما ينبغي، فقد يكون ذلك راجع أكثر إلى استراتيجية الدعاية والترويج للكتاب منه لغياب القراء أو ضعف المنتج، وإلا كيف نفسر ما بلغته كتبه من شهرة، وأصبحت اكثر مبيعا، حتى في آخر نوع أي القصة البوليسية، بالإضافة إلى الكتب السابقة للمؤلف (الكتابة البيضاء للشهادة) *l'écriture blanche de témoignage* والتي استنفدت بسرعة، وتمت إعادة طبعها ،

ومجموعة جديدة ممثلة في انعكاس لدار شهاب للنشر التي دشنت رواية(حظوة طائر الفينيق) *Le privilège du phénix* ليكتشف لاحقا أنها ذات جودة أدبية عالية.

2-1 الرقابة:

تتميز نشر أعمال ياسمينة خضراء بوضع تحريري جزائري خاص، وبظواهر من الرقابة والرقابة السياسية والأخلاقية التي تميز مجتمعات ما بعد الحداثة. وحتى اليوم، لا يمكن العثور في الجزائر على كل الكتب التي نريدها، وارتفاع الأسعار، شكل آخر من أشكال الرقابة، كل هذا جعل الوصول إلى الكتاب أمرا صعبا.

في مقابلة مع صحيفة الوطن قال محمد مولسهول: "لا يوجد هناك ما هو أشد حزنا من الرقابة مثل الإبعاد. لأنه لا يستفيد منه أي شخص، لا سيما تلك الآمال التي تنتظر الانفراج". 6 لكن الرقابة التي مورست على ياسمينة خضرا كانت خاصة، لأنها مرتبطة بمهنته، كضابط في الجيش الجزائري، ليجد نفسه مضطرا إلى الرضوخ للنظام العسكري الذي يدفع محمد مولسهول إلى عدم الكشف عن هويته لاحقا لنشر نصوصه. كان مولسهول قد بدأ الكتابة سنة 1984 بنشر ست روايات باسمه الحقيقي وكانت موضوعاتها الاستقلال، الحياة الريفية، والمتسكعين "كنت أمنع نفسي عن مهاجمة النظام، وعندما أحمل القلم كان الضابط يميل على الكاتب" ومع ذلك اتخذ المؤلف، اسمين مستعارين عرف بهما في ظروف خاصة. في شرحه لهذا، كشف المؤلف في وقت لاحق:

"في صيف 1989... ، فرض مرسوم صادر عن وزارة الدفاع بقسوة على الكتاب الذين ينتمون إلى المؤسسة العسكرية لإخضاع أعمالهم للجنة الرقابة العسكرية. لم يكن هذا المرسوم يقصد به غيري. لم أتخيل أن أقبل هذا التدبير. وبدلا من الخضوع قررت أن أتوقف عن الكتابة: غير أن هذا القرار جعلني كالمجنون! عند ذلك "نصحتني زوجتي باتخاذ اسم مستعار... ياسمينة خضرا وهما اسماها" .7 تم استدعاؤه بعد فوزه بجائزة بو *Pau* للقصة. و في سنة 1988 تم نقله إلى الجنوب لمدة ثلاث سنوات بعد إجراء حوار في التلفزيون الجزائري. في باريس بيعت 30000 نسخة من رواية *Morituri* باسم ياسمينة خضرا. ولوضع حد لجميع التكهنات والتفسيرات الأخرى، أسقط هو نفسه القناع في

(خريف الوهم)*L'automne des chimères* . حيث اعترف بأن ياسمينة خضرا رجل، دون أن يقول أكثر من ذلك.

في تلك الأثناء، كشف الكاتب عن هويته، وكان ذلك في يناير 2001، عند استضافته في الحصة التلفزيونية *Bouillon de culture* ، التي يقدمها برنار بيفو *Bernard Pivot* ، لقناة فرانس 2، حينها عرف الجمهور أن الكاتب ياسمينة خضرا لم يكن سوى اسم مستعار يختفي وراءه رجل عسكري محترف.

تقول فرانسواز نوديون *Françoise Naudillon* :"هناك على الأقل قناعان لياسمينة خضرا، فقد نشر أولا تحت اسم مستعار المحافظ لوب *Llob* قناع أول، ثم تحت اسم مستعار شهير بأسماء مؤنثة ياسمينة خضرا قناع ثان، هذان هما القناعان الرئيسان . قناع ثالث تم إلحاقه كما أعتقد من قبل وسائل الإعلام الفرنسية التي لعبت كثيرا على زنمردة *Androgynie* الاسم المستعار" ...8

ومع ذلك، إذا تتبعنا عن كثب خضرا، قد يتصور المرء أن استعارة الاسم يمكن أن تفسر أيضا بطريقة أخرى، لم يكن الامر محفزا بدافع الرغبة في الهروب من الرقابة، ولكن للفت الانتباه إلى المؤلف وعمله، وكذلك بشأن مسألة الهويات الأنثوية والذكورية. وباختصار يمكن أن ينظر إلى هذا التمويه كأنه في الأساس خدعة إعلانية.

يستخدم الكتاب أسماء مستعارة، في كثير من الأحيان للمحافظة على سرية هويتهم أو لأنهم وجدوا أنها أكثر مبيعا من أسمائهم الحقيقية. يحرر الاسم المستعار الكتاب من واجب التحفظ والجدية، فهو يجعلهم أحرارا في التعبير عن أنفسهم كما يحلو لهم في الموضوعات التي يريدونها. من هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر ***Lewis Dodgson*** ***Carroll-Charles Lutdwidge*** صاحب أليس في بلاد العجائب

Pablo Neruda- *Ricardo Eliécer Neftalí Reyes Basoalto* الحائز على جائزة نوبل للآداب

Stendhal *– Marie Henri Beyle* ***صاحب رواية الأحمر والأسود***

Voltaire– François-Marie Arouet صاحب رسائل فلسفية

Joanne Rowling–*Robert Galbraith* صاحبة هاري بوتر.

أيضا، هناك شكل آخر من "الرقابة" ملفت للنظر هو الصمت الملاحظ في وسائل الإعلام الجزائرية حول موضوع خضرا وإنتاجاته، و هو حال التلفزيون الجزائري.

اكتشف المشاهد الجزائري ياسمينة خضرا في وقت متأخر. من خلال مرور قصير للرجل في التلفزيون الجزائري في مجمله لم يتعد الست مرات، بما في ذلك مقاطع من بضع دقائق في النشرة الإخبارية خاصة بمناسبة التوقيع على مشروع تصوير الفيلم المقتبس من *Morituiri* 9 لعكاشة تويتة وهو إنتاج مشترك جزائري فرنسي، أو بعد عرض روايته (الاعتداء) *L'Attentat* في الصالون الدولي للكتاب بالجزائر*SILA* إثر اختيارها لجائزة "غونكور" *Goncourt* ، أو أيضا في عام 2007 قبيل تعيينه في منصب مدير المركز الثقافي الجزائري بباريس.

ورغم ذلك، فإن الجواب على الصمت الرسمي جاء من الأكاديميين الذين منحوا نصوص خضرا كل الأهمية التي يستحقها نظرا لقيمتها الأدبية. فأول دراسة في الجزائر قام بها عبد القادر غلال وهو أستاذ بجامعة السانية لنيل شهادة *D.E.A* تحت إشراف شارل بون *Charles Bonn* جوان 1999بجامعة باريس الشمالية. منذ ذلك الحين بدأت الدراسات حول أعمال الكاتب تتوالى، منها رسالة ماجستير لسليماني إسماعيل بعنوان *L'écriture autobiographique chez Yasmina Khadra* بجامعة باتنة عام 2007 ثم *de naître à être ou la vie s'écrit, Lecture de L'Ecrivain de Y.asmina Khadra* دراسة لزايدي علي بجامعة الجزائر 2006 وأخرى لويزة قادري لنيل شهادة الماستر بجامعة جيل فيرن بالبيكاردي *De l'utopie totalitaire aux oeuvres de Yasmina Khadra* وبإشراف *Marie Dollé*

ولازالت أطروحات حول أعمال الكاتب في الجزائر وباقي الدول الفرنكوفونية و العربية قيد الإنجاز.

2- التلقي الأجنبي:

في غياب قانون أساسي statut للكاتب في الجزائر، وغياب الجوائز الأدبية التي تعتبر بالإضافة إلى الاعتراف الرمزي، دعما ماديا لا يستهان به. كان مشروعا للكاتب ياسمينة خضراء أن يتحول إلى النشر خارج بلده، ويطمح في التكريم الباريسي على وجه الخصوص. إلى جانب ذلك، أغلبية رواياته نشرت في فرنسا، وبالتالي فقد لقيت أولا

إعجاب النقاد والقراء الفرنسيين، وخاصة بداية من سنة 1997 حيث اكتسبت نصوصه مكانة رفيعة في فهارس دور النشر.

في دراستها التي خصصتها لحالة الرواية الجزائرية لسنوات 90 لاحظت آن غريفون *Anne Griffon*

أن "تأثير الأحداث التي تسبب سفك الدماء في الجزائر بداية 90 بالتأكيد يمثل محددا رئيسا لتعدد الأنواع في المشهد الأدبي الجزائري... وكما رأينا في وقت سابق، فإن الواقع المأساوي لم يخنق الإنتاجي الأدبي الجزائري، بل على العكس من ذلك...فإن الأحداث الجزائرية جعلت الإنتاج الجزائري بشكل خاص في فرنسا حاضرا في فهارس دور النشر وفي وسائل الإعلام الفرنسية" . 10

صحيح أن الموضوع الرئيس لروايات ياسمينة خضراء حتى عام 2000 كان مرتبطا بالوضع السياسي في الجزائر ومنه كان استقباله ملفتا، خاصة أعماله (المجنون بالمبضع) *Le Dingue au bistouri* التي أعيد طبعها، و(الموت) *Morituri* (خريف الأوهام)*L'Automne des chimères* (خراف المولى) *Les Agneaux du seigneur* ، و(بم تحلم الذئاب؟) *A quoi rêvent les loups* التي لفتت انتباه القراء نحو المأساة الجزائرية، وهذا يعني أن النقد الصحفي الذي ظهر من خلال المقالات كان هو نفسه تحت تأثير التاريخ الراهن للجزائر.

وفقا لذلك، فإن جمهور القراء وجه نحو قراءة وثائقية سعت إلى فهم الواقع المأسوي لجزائر التسعينيات، فالقراء كانوا ينتظرون معلومات وشهادات حول الوضع الجزائري، وبالتالي فإن النوعية الأدبية للأعمال تأتي في المقام الثاني.

خاتمة:

حالة ياسمينة خضراء إذن خاصة: فاسمه المستعار، ووظيفة الرجل العسكرية عنصران كانا محوريين في التلقي الصحفي للنصوص.

ونختم في آخر هذه الدراسة بقول جورج موليني *Georges Molinié*:

"إنه المتلقي، والقارئ، والجمهور يقاس بهم النجاح والحضور. فالنص الأدبي يعرف ، ويتحدد مع الفعل الذي ينتجه في عملية التلقي، فإذا أعطى الرغبة بإعادة قراءته بنفس

الاهتزاز والسعادة فهذا يعني أنه حاضر، وإذا لم يقم بإنشاء هذا الفعل...، فهو ليس حاضر أدبيا."

هوامش الدراسة:

1-LOUNES, Abderrahmane. « Le polar et la manière. Le Dingue au bistouri de Commissaire Llob », in *El Moudjahid du* 30 juillet 1991

2- GHALEM, Ali. «Yasmina Khadra dit tout au quotidien d'Oran », in Le Quotidien d'Oran du 1/02/2001.

3-ANDALOUSSI, Toufik. « Des responsabilités partagées », in info soir du 17/12/2004.

4-LAHOURI, Besma. « L'étrange monsieur Khadra » in Lire mars 2002, www.lire.fr/entretien.

5-BENACHOUR, Bouziane. « Je ne suis pas un écrivain de l'urgence.», in El Watan, 15 mai 2005.

6-BENACHOUR, Bouziane. « Je ne suis pas un écrivain de l'urgence.», in El Watan, 15 mai 2005.

7- DROUIN, Jean-Luc. « Yasmina Khadra se démasque », in Le Monde du 11 janv 2001.

*8- KHERIF, Nadia. « Françoise Naudillon : Yasmina Khadra est dans l 'entre-polar »***,** *in Le Matin 15 février 2003.*

9- فيلم من إخراج عكاشة تويتة، وإنتاج مشترك فرنسي من طرف كلود كونتز، وجزائري بمساهمة المركز الوطني للسينما ومن الطرف الجزائري المخرج بشير درايس والمؤسسة الوطنية للتلفزيون.

10- GRIFFON, Anne, *Romans noirs et romans roses dans l'Algérie d'après 1989*, Mémoire de DEA sous la direction de Jacques Chevrier et Guy Dugas, Université de Paris IV-Sorbonne, soutenu en 1999, p.11